توزيعه في بلدان الارض

وأثره في سياسات الامم

من تكد الدنيا، ان البترول، وهو المادة الثمينة التي يقوم عليها الصرح الصناعي الاقتصادي الحديث، ليس موزعاً توزيعاً عادلاً في كل بلدان العالم . وهذا مصدر من مصادر الشقاق بين الامم

فثمة بلدان غنية بمنابعه وثمة بلدان محرومة منهُ . ومن هنا نشأ النضال بين الامم الكبيرة والسباق الى امتلاك البلدان التي يكثر فيها امتلاكاً مباشراً او بسط السيطرة عليها، مالية كانت او سياسية . فالويل للأمم التي لا تملك منابع للبترول في هذا العصر . والويل ثم الويل للبلدان التي تملكها ولكنها لا تستطيع ان تدافع بالقوة دون استقلالها ، لانها محكوم عليها حينئذ ان تصبح معتركاً للفاتحين من الطراز الحديث !

وأشهر المنابع المعروفة الآن موزعٌ في ثلاث مناطق رئيسية — المنطقة الاميركية — والمنطقة التي حول الطرف الشرقي للبحر الابيض المتوسط — ومنطقة جزائر الهند الشرقية

اما منابع المنطقة الاميركية فلم تستنبط الاّ في الولايات المتحدة الاميركية وأميركا المتوسطة، ولكن ثبت للباحثين ان ثمة منابع بترول في قارتي اميركا الشمالية والجنوبية من كندا الى طرف الارجنتين الجنوبي . بل يبدو كأن القارتين الاميركيتين حوضٌ متسع من البترول . اما المنطقة الثانية فتشتمل على شرق اوربا كرومانيا وغرب آسيا كتركيا وشواطىء البحر الاسود والعراق. ثم هناك جزائر الهند الشرقية وأشهرها جاوى وسومطرا وبورنيو . في هذه المناطق الثلاث فقط يمكن استخراج مقادير كبيرة من البترول تجعل استخراجهُ عملاً تجاريًّا رابحاً

فيظهر اذاً كأن بلدان اوربا التي كانت تمتاز بمناجم الفحم ، محرومة من منابع البترول . على ان شعوبها كانت في مقدمة الشعوب التي ادركت قيمة البترول وأثره في الحياة الاقتصادية فأخذت تتجارى الى امتلاك منابع الثروة التي تنقصها . وقد شهد التاريخ مثل هذا الزحام في السعي وراء الذهب والفحم وغيرهما من قبل

ففي عصور التاريخ الاولى ، كان الذهب ملكاً . وامتلاك اغنى مناجمهِ جعل الامم الاسيوية ذات صولة وسلطان ، بل جعلها مهداً للحضارة . فلما تخر فيها سوس الفساد ، غزتها الشعوب المتوحشة، وقد استهواها بريق الذهب، فجاءت تنهبهُ . ثم وقع مثل هذا للأمبراطورية الرومانية ، التي انتزعت زمام السيادة من آسيا ، وتلتها في ذلك الامبراطورية البيزنطية . فالاولى انهار صرحها امام هجمات البرابرة من الشمال، والثانية امام حملات البدو المنطلقين من البادية. وهكذا

انتقل الذهب ، على مرّ العصور من يد الى يد ، ومعهُ العولمة والسلطان . ولكن حدث من نحو قرنين ونصف قرن ، حادث لم يكن ذا شأن في نظر الناس حينئذٍ ، ولكنهُ غيَّر وجه الارض

ذلك انهُ في مطلع القرن الثامن عشر ، اذ كان لويس الرابع عشر يقضي شيخوختهُ في فرساي ، مثقلة بالمجد ، وأعداؤهُ ينتظرون وفاتهُ ، لكي يثأروا لنفوسهم من خلَفهِ ، كان عالِم فرنسي متواضعٌ ، قد طرد من فرنسا بموجب « مشور نانت » فذهب الى المانيا حيث والى تجاربهُ رغم فقرهِ ، في قوة بخار الماء ، بل انهُ بنى مركبًا صغيراً شبيهاً بعربة تدور عجلاتهُ الاربع بقوة البخار . خطمهُ بحارة مُسندن ، خوفاً من ان يسد في وجوههم سبيل الرزق

وظلت فكرة — دنيس پاپان — مطوية نحو قرن وفي اوائل القرن التاسع عشر صنعت الآلة البخارية وشاع استعمالها في الصناعة ومن ثم اصبحت ثروة الامة رهناً بما تملكهُ من مناجم الفحم ، لا مناجم الذهب والفضة والحجارة الكريمة . وهكذا تمَّ للامم التي اخذت بالآلة البخارية في صناعتها الوف من العبيد — الآلات التي اغنت عن العبيد — تشتغل لها . فكان عصر الفحم

واخذت السفن البخارية تتجارى لغزو البحار ، والسكك الحديدية لافتتاح القارات . واتسع نطاق الصناعة الآلية ، فتغلبت على الصناعة اليدوية ، وسيطرت على الاسواق البعيدة ، فاتجهت تيارات الثروة نحو البلدان الصناعية الغنية بمناجم الفحم ، لان الامم التي تملك الذهب لم تتأخر عن ان تستبدل بذهبها ما تحرجُ المصانع من البضائع . فاثرت الولايات المتحدة والمانيا وانكلترا من هذا الطريق . بل يصحُّ القول بان بريطانيا بنت امبراطوريتها على الفحم

ومن البلدان التي فقدت مقامها في عصر الفحم والبخار ، لقلة الفحم في ارضها ، ايطاليا . فانها لما حاولت ان تجاري الامم الصناعية ، اضطرَّت ان تستورد الفحم الضروري لمصانعها ، فاضطرت من ناحية اخرى ان تنقص اجور عمالها وتخفض مستوى معيشتهم ، لتتمكن من مباراة الامم الصناعية الاخرى ، بعض المباراة في اثمان مصنوعاتها ، وهكذا اصبحت ايطاليا — وقد كانت الغنية في عصر الذهب — فقيرة في عصر الفحم : لها لمن المفارقات

وما لبث العلماء ان اخذوا يبدون قلقهم من مجيء يوم ينفد فيهِ الفحم المخزون في بطن الارض ، وجعلوا يحسبون بالارقام ميعاد ذلك اليوم وصوَّروا العالم فيهِ بصورة قاتمة تنقبض لها النفوس ، اذ تقف الآلات في كل المصانع عن العمل . اما الامم الصناعية ، فضنت في استخراج الفحم من المناجم غير عابئة بما ينطوي عليهِ الغد

ولكن في السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر كان عالِم مكبٌّ في سكون معمله على البحث في موضوع لم يعرهُ الجمهور حينئذٍ عناية ما . وكان اسم هذا العالم « بو ده روشا » . فانهُ استعار فكر الاب هرتفيل الذي حاول سنة ١٦٧٨ ان يصنع محركاً يدور باحداث انفجارات صغيرة متتالية ، مستعملاً البارود لاحداث هذه الانفجارات . ثم طالع مباحث المهندس النابغة

لونوار الذي تصوّر سنة ١٨٦٠ امكان توليد قوة متحركة من مزيج من الغاز والهواء المضغوط وهكذا استنبط المحرك الذي يدور بالانفجار على مثال محرّك السيّارة فكان ذلك ابتداءً بانقلاب جديد في الصناعة بعيد الاثر واسع النطاق ، فثلّ عرش الفحم، ونصب البترول منكاً

وكان الطبيعة تحبّ التوازن ، فحرمت الامم التي امتازت بمناجم الفحم من منابع البترول واذا انكلترا والمانيا وفرنسا وبلجيكا لا تجد في ارضها من هذه المادة الثمينة ما يشفي غليلاً

وكان الانكليز اسبق هؤلاء الى ادراك فداحة الخطر . وزاد قلقها لما اكتشفت طريقة لتكرير البترول باحالته في مرجل ، وفهمت انهُ اذا لم تملك من منابع البترول ما يكفي سفنها التجارية والحربية ، اصبحت تحت رحمة الولايات المتحدة الاميركية . واذا ضاعت صولة اسطولها قضى على ارتقائها الصناعي ، وتجارتها ، وسلامتها ، ومكانتها العالمية ، السلام

فهل تسمح لنفسها ان ينزعها التوة التي منحتها اياها مناجم الفحم ؟ هل تفقد سيادتها للبحار، وسيطرتها على الاسواق العالمية ، وامبراطوريتها المنثورة في مشارق الارض ومغاربها وهي واثقة مكتوفة اليدين ؟ لانهُ رغماً عن كثرة مناجم الفحم فيها لست تجد في كل امبراطوريتها الا نحو ٤ في المائة من منابع البترول العالمية . فعزمت ، طائفة من رجالها الممتازين ببعد النظر وصدق الوطنية ان تخرجها من هذا المأزق . فدبروا الامر بينهم ، بمعزل عن الشعب والبرلمان، والولايات المتحدة الاميركية قانعة بسيطرتها الظاهرة ، لانها كانت تخرج ٨٥ في المائة من مقدار البترول المستهلك في العالم. فلم تنقضي بضع سنوات حتى كان الانكليز قد بسطوا سيطرتهم على منابع البترول اللازمة لحياتهم الاقتصادية وسيادتهم البحرية ، فلما تنبهت الولايات المتحدة الى ذلك ، وعرفت ان احتكارها للبترول بات في خبر كان ، كان قد سبق السيف العذل

من هنا يتبيّن للقارىء كيف تسيطر مسائل البترول على سياسات الامم . ففي كل بقعة وجد فيها نبع بترول، أو يظنّ ان فيها نبعاً، ترى النزاع قائماً فيها بين الامم، آناً في وضح النهار، وآناً تحت ستر الخفاء ، ولكنهُ نزاع على كل حال ، هدّد السلام العالميّ غير مرة ، ولا يزال يهدّدهُ . ولكن ، لعل عالماً يقوم ، ونحن نكتب هذه السطور ، بتجارب من شأنها ان تحدث انقلاباً في الصناعة كما احدث استنباط الآلة البخارية وآلة الاحتراق الداخلي. فيضطرب التوازن الدولي مرة اخرى، ويعود التقتير غنىً والغنيّ فقيراً . وليس هذا من بنات الخيال. فالعالم الفرنسي جورج كلود ، يقيم من سنوات في احدى الجزائر الثانية ، محاولاً ان يبدع طريقة عملية تجارية لاستعمال القوة التي لا تحدُّ ، الكامنة في حركة مياه البحار

هذه هي السنّة التي تجري عليها حضارتنا ، القائمة على الآلة وتطبيق العلم واستعمال القوة. فربَّ استنباط يخرجهُ عالم مجهول، او اكتشاف بسيط يقوم به باحث مثابر ، يكون من شأنهِ ان يقلب التوازن الكائن بين الامم ، فيضع العالي، ويرفع الوضيع . هكذا تتحول امجاد العالم ا